سمير تنير

القمر فوق حافة الأفق

كانت العتمة قد القت غطاءها على الكون ، فانتشر في الفراغ شذى الازهار يحملها الهواء الي . كنت امشي بسرعة ، اخترق الباب وامشي بسرعة والساعة في يدي تشير الى السابعة وانا اجتاز الشارع والمصابيح تتلالا والشفق يتحول الى رماد (ظهرت لي الحديقة مضيئة مساء البارحة عندما القى الشفق ستاره كان البيت خاليا والغرف مظلمة وانوار المصابيح تبدو بعيدة وانا في السرير والاوراق لامعة بالندى كانت الحديقة تغرق في النور) .

عندما وصلت الى مفترق الشارع واجهتني قبة الكنيسة ترتفع الى السماء الزرقاء واحسست بها وكانها تقول كما قالت البارحة « دعني » وكان يجب ان أراها وكنت امشي بسرعة (امام النهار كنت المس يديها كانت وفي المساء كانت عندما رأيتها كنت اعرف ما ستقول عيناها امام الليل) .

كنت اتطلع الى كنزة خضراء . لا بد انها هي . فاتطلع من جديد ويصطدم بي عابر فلا يلقي اعتذارا ، وترتجف يدي عندما اضع يدي على عمود النور في الشارع ، والكنزة الخضراء تقترب في العتمة ، والوجه يقترب ابيض ساكنا تنحدر خصلة شعر سوداء على جانب منه ، وانا في الشارع المظلم والهواء يغسل يدي ، ويدي ترتجف ، والوجه الابيض الساكن يعلو على عنق يبين في نهايته زر الكنزة البني ، والوجه الابيض يرتفع من حول الرماد ، والفم يبين كما لو دهن بالرماد ، ابيض باهت الحمرة . لم تقل شيئا . لم تنظر الي . وانا امسك بيدها دون ان انبس ، ونحن نخطو .

كنت اود ان اقول اي شيء . ان اعكر صمت السكون والطبيعة في ذلك الشارع المشجر الذي يمتد حتى البحر . شقت سيارة مسرعة رماد الشارع ولمعت مصابيحها واخذت تطلق زمورا متقطعا ، ثم صرخت عجلاتها بسرعة ووقفت محطمة الصمت . تحولت نظراتها الى السيارة فتطلعت اليها . كان جسدها يرتفع كجسد الهة ،وعيناها في الرماد تسطعان وقد ارتفع نهداها وعنقها ووجهها كتمثال (كنت اراهم تحت شجرة الليمون عندما اخترقت ضوء القمر في الليل عندما ذعرت القطة البيضاء واختفت بين الحشائش كنت اسمعها) كانت السيارة فاتقة الاناقة جذبت انتباه الناس بصوتها الذي انبثق معكرا صمت الشارع والاشجار . امسكت بيدها وعبرنا الشارع الى الجانب الآخر دون ان انبس بشيء ، وانوار النيون في الشارع اضيئت وامتدت في الشارع الطويل عبر دائرة واحدة تحاول ان تهزم بنورها الهادىء عتمة المساء . وفي الافق كان كل شيء هادئا (الحديقة كانت تشع بالضياء امس مع ضوء الافق وهواء البحر كانت الاوراق تهتز عندما).

ـ الن نتحدث ؟

ـ عن ماذا ؟

ـ هكذا اريد ان اقول اي شيء .

ـ حسنا ..

ـ حسنا ..

لا ازال اغوص في الضياء العنيف الذي غمر الحديقة مساء امس. لا تزال اصابعي تؤلمني وانا اتطلع اليها وجسدها يرتفع الى عنقها كتمثال .

ـ لقد سمعت اشياء .

ـ ممن ؟

ـ لا اقول .

ـ حسنا .

(لو استطيع فقط ان اكون ذلك استطيع فقط لو)

ـ الا تعلمين ؟ كنت ولا ازال احبك . منذ كنا في المدرسة . كنت احبك . لا ازال .

ـ الم اقل لك دعني لا فائدة من الامر . هل تريد ان تموت ؟ انا لا املك نفسي . لا استطيع ان امنع نفسي . انت لا تعرف اي شيء . دعني .

عندما اهتزت الاشجار مع الهواء كنت انحدر الى هاوية سحيقة وسنوات خمس تحترق مع ازهار تحترق في اشعة الشمس .

ـ الا تعلم . لم أعد تلك الفتاة الرائعة التي احببتها .لقد تغيرت.

ـ لا يهمني . ما يهمني انت وليس كل شيء .

ـ قلت الآن انك سمعت باشياء .

ـ ولكني احبك !

رمقتني بطرف عينها عندما وضعت يدي على ذراعها . كان في عينيها تساؤل عنيف يطلب ان يجاب على الفور .

ـ كما في البدء ؟

ـ كما في البدء .

ـ والى اين النهاية ؟

ـ . . . . . .

(الموت ينتظرني تحت الشجرة واوراقها تلمع وتهتز عندما رأيت الحديقة وهي تسطع في الضياء كنت افكر استعيد خمس سنوات ستحترق هباء)

ـ الى اين نذهب ؟

ـ دعيني اقول . اريد فورا ان اعرف كل شيء .

الم يعاود كرته في يدي اليسرى بينما عيناي ترتفعان الى الرماد وانا افاصل الغصة التي تجمدت في صدري . وهذا اليوم يبدو طويلا. طويلا جدا . كل دقيقة منه كانت تمتد الى ما لا نهاية . وكان يجب علي ان افعل اي شيء . كان علي ان افعل ما اريد ، لا ان ادع الزمن والساعة والايام وهي تتساقط مع اوراق الشجر ، والاعين الفاضبة يوما ان تحول مصيري ، ان تحرق مع رائحة الازهار خمس سنوات حب يهال عليها الآن تراب كثيف .

ـ يا الله ؟ كيف اقول . لا استطيع .

ـ انا سأقول لك بعد قليل . تعالي .

وكنت اعرف انها كانت معه قبل دقائق . كنت اقرأ هذا في وجهها وفي عينيها . وبدا لي الضياء تحت اهدابها وفي وجهها اسود شاحبا .. ومنذ قليل كانت كما كانت . السنوات المقبلة المفقودة في طوق ياسمين بدأت تنفرط . تحولت احجارا صغيرة صغيرة قذفت بها يد قاسية في ينبوع يبتلع كل شيء . ولا يبقي ماؤه المتدفق ونافورته الرائعة الا الزبد والرذاذ . الاحجار والرذاذ يتهاطلان يغيبان حلما وحقيقة عاشت سنوات خمسا . الصدى يغيب في الينبوع كحبات عقد تتحطم .

كنا نمشي بسرعة وهي لم تنظر الي ، وانا كنت اغفل عنها وشيء ينبثق في صدري . الموج يلقيه على الشاطيء . كنا نمشي وكنت عنها غافلا .

(هل تستطيع ان تمشي ؟ الشاطيء بعيد
سنجلس تحت الشجرة ونواصل السير

كان الرمل نديا عندما جلسنا تحت الشجرة وهي تبتسم بغبطة ثملة

الغمامة البيضاء كانت تتبدد وسط زرقة السماء بسرعة والعصافير تجلجل بالحانها ووجهها كان قريبا جدا مني يؤطره شعرها وكانت يدها قريبة من صدري فجعل قلبي يضرب ويدي تلمس شعرها.

حسنا متى ؟

الا تعرفين متى ؟ كنت اقول سأعمل . لم يعد لي ما اسف عليه .

كان وجهي يتجه الى السماء

قلت سأعمل ساعمل)

قبضت بسرعة على ذراعها .

ـ تعالي

ـ ماذا ؟

ـ تعالي . لن ينتهي الامر هكذا .

ـ انا آسفة .

ـ لا تقولي هذا .

(عندما لمحتها في النافذة كان ثوبها الابيض يلمع وعندما تطلعت اليها كنت اغرق واضيع في عينيها ، كان حلم شفاف يلوح، كنت استمع الى موسيقى عذبة وهي تلقي تحيتها والحمرة تلوح في وجهها) .

« لفتني اشعة الشمس بخيوطها العنيفة امس عندما اصبحت في الشارع ، فاسرعت اطوي الطريق وقد بدا لي كل شيء اسود ساكنا . كانت السيارات تمر سريعة نافثة دخانا يطفو في الهواء، يسير مع النهار المذعور يغطي زوايا قلبي القصية .الحركة اصبحت اكثر عنفا هنا في الحي الراقد على حافة المدينة . وكنت اعلم ان شيئا ما قد حدث ، ولم اكن اعرف ماذا سأفعل . مررت امام منزلها . كنت اتطلع بلهفة عليها تطل . لكني لم ار شيئا . صورتها وهي في ثوبها الابيض انطبعت في ذهني وتبخرت سريعا . فعبرت الطريق وتابعت مسيري . الزرقة تبهت في السماء ووراء الافق والناس يعبرون واصابعي ترتفع الى جبيني والريح تكنس الشارع وتثير الغبار . الزرقة تضيع في السماء . هل افقدها يا ترى ؟ (مع الموج والريح والبحر كانت في الليل مع الموج والهواء كانت وحدها امام الليل) .

تطلعت اليها وخطواتها تسبقني الى عنقها وذراعها ، والشنطة الصغيرة السوداء في يدها تتأرجح . السكون يتحرك مع الناس الذين يتحركون ومع الترام الذي يتزحلق بانتظام .

ـ انت لا تدركين ما سوف تسببين لي .

ـ وهل انا الفتاة الوحيدة في العالم ؟

ـ قد تكونين الوحيدة بالنسبة لي . انت لا تدركين . ان اشياء اخرى تجذبك الآن وتثير اهتمامك .

ـ لا .. ليس الامر هكذا .

ـ انت تكذبين .

« كانت الابنية الملونة في الشارع الذي يمر خلاله الترام في جحيم الظهيرة امس ، ترتفع الى الشمس اللاهثة حابسة الضوء عن الارصفة القذرة الطويلة . كان الشيء ينبض في قلبي كضوء حي ، والزرقة مرمية على الافق وفي الجبال والى البحر وانا اسير واعبر الشارع المخطط بقضبان الترام وسيارات السرفيس تمر ، وبعضها يطلق زمورا متقطعا ، ثم يهبط المدينة . تهادى الترام وابتلع الجماعات في جوفه وغيبتني معهم (لحظة واحدة النور اضاء عينيها يد حمراء لمع ذراعها في الظلمة كان الهواء يحرك شعرها الشفة احدثت احتكاكا عندما لامستها الشفة) استندت على العمود الذي يتوسط الحافلة وراقبت الظلال وهي تدور وتبتعد » .

« كانت الظلال قد توقفت عن دورانها عندما وقفت الحافلة في الساحة فنزل كثير من الركاب وبصقتني الحافلة معهم . سرت بالاتجاه صعودا . كانت الساعة تقول الواحدة والنصف . عبرت الشارع . رأيت الظلال تدور حولي من جديد ، وظلي يمشي امامي ويخطو كلما خطوت . رأيت المطعم الشعبي الرخيص تتصاعد منه ابخرة الزيت . لكنني كنت جائعا اكثر لسيكارة ادخنها ، فابتعت علبة واشعلت لفافة . ومشيت الى فسحة السينما الصغيرة ونظري يمر على الاشياء بسرعة والناس يعبرون . همت على وجهي في الشارع وفي الممرات الضيقة افكر باشياء كثيرة ، اظنها واضحة ولكنها تبدو بعيدة الآن . عندما افكر بشيء واضح يرتبط به تفكيري ، فانه يلزمني ويقهر جسدي . عندما اهرب من شيء اجد نفسي امامه بصورة افضل . وعبثا احاول الفرار منه . ان الحياة تطلب اختيارا في كل لحظة . تطلب ان تصنع في كل دقيقة . لا ان تترك ريشة في مهب ريح عاتية (ماذا كنت اود ان اقول كنت اريد ماذا من سحابة السماء) هل يخسر الانسان كل شيء دفعة واحدة ؟ انني اضيع كل شيء . احسست بنبضي يتحرك ويخفق في وريد الرقبة (هل افقدها يا ترى) الحركة اللانهائية في صدري تتابع نفسها . كنت اغفل عن الحركة في الشارع ما عدا ذلك الصوت الذي ينبض في داخلي بصورة مستمرة . كنت قد اخترقت ممر السينما . اصابعي قبضت على السيكارة » .

ـ انا لا اعرف . لا استطيع .

ـ انت تعرفين وتدركين كل شيء . لم تعودي طفلة بعد . الا تستطيعين مرة ان تختاري ؟

ـ هل الامر هكذا ؟

ـ بالضبط !

« كنت مطوقا ومحاصرا بالجدران الصفراء من كل مكان والبقعة الزرقاء ترتفع عالية عالية : (ماذا اريد كنت من سحابة السماء).

ـ علينا ان نفكر .

ـ كيف نفكر ؟

« انفصلت عن الكتلة البشرية الدبقة واحسست بهواء ساخن

يلفح وجهي ، وانا اتجه الى الجانب الآخر من الشارع . رأيت فتاة صغيرة في العاشرة بجانب امها . انزلقت الى ذهني في الحال صورتها هي وامها وهما تقفان امام مفترق . كانت تقف هناك كهرة وديعة ،وانا اسرع الى الخلف وهما تتلاشيان تلاشيا ناعما وعلى سيمائهما انتظار واصل راعش » .

ـ هل يجب ان نتكلم بعد .

ـ نعم اريد ان اسمع ما تقولين . انت التي لا تريدين ان تقولي اي شيء .

انك تطلبين مني ان اذهب بغير وداع ومن غير كلمة . كأن السنوات الخمس لم تكن الا غبارا .

نظرت الي ، ووجهها في الظلمة يتقلص وكنزة الصوف خضراء في العتمة السوداء وشفتاها طليتا بالبياض . خطونا على الرصيف الشجر . اختلطت ظلالنا مع ظلال الاشجار ثم انفصلت وعبرت الشارع . كانت المصابيح تمتد راكضة عبر فراغ طويل .

« عندما انفصلت عن الكتلة البشرية الدبقة في الممر ، احسست بهواء ساخن يلفح وجهي وانا اتجه الى الجانب الاخر من الشارع. وقفت سيارة سرفيس اطلقت زمورها المتقطع ، فأشرت للسائق وصعدت. كانت خالية الا من رجل سمين يضع على عينيه نظارات سميكة . كانت تسير بهدوء لذيذ والهواء الرطب الممزوج بوهج الشمس يهب على وجهي ويعبث بشعري وقفت السيارة وافرغت الرجل . غيبت في جوفها انسانا آخر . عادت الظلال والابنية تدور وانا انظر واتعب واطرق . دارت السيارة . اطلق سائقها شتائمه المعتادة . وصلت الى منعطف الجامعة . اسرعت في سيرها . توقفت . ابتلعت في جوفها بعض الركاب . سارت . راقبت رؤوس الناس وظلالهم . كانت بعض الفتيات بملابس المدرسة يجلسن في السيارة الآن . اخترقت رائحة الملح انفي واحسست بالزرقة الضائعة عن بعد صفحة طويلة متماسكة . لمست احدى الطالبات ذراعي . كانت عجلات السيارة قد صرخت ووقفت . فتحت الباب خرجت . اغلقت الباب . تحركت السيارة مطلقة دخانا كثيفا . وقفت عند آخر الخط . رجوت السائق أن يوصلني الى طريق الكورنيش ودفعت له ربع ليرة زيادة. عندما وقفت السيارة ، احسست فورا بالموج يصخب في هدوء وينكسر على الصخور . كانت الجبال تغيب عالية الى السماء الصافية المشتعلة . احسست بحركة البحر تمتد الى اللانهاية والماء يهدر ويرتفع وقد لاح في الافق شراع كجناح حمامة يبدو ساكنا وسط الزرقة الباهتة العريضة . رفعت يدي الى جيب الجاكيت . فتحت علبة السكاير . اشعلت سيكارة . (ماذا اريد من موج البحر من غيمة السماء ماذا) .

ـ انت لا تدركين ما معنى ان يجوع الانسان .

ـ لا تتكلم عن ذلك . ارجوك . الا تراني اعمل .

ـ انك تعملين . تعملين . وانا لم اترك دراستي لكي اعمل . من أجلك انت .

ـ تلك هي الحياة .

ـ لا .. ليست كذلك الحياة .

ـ لقد علمني العمل حقيقة الحياة . انها لكذلك .

ـ وانت .. انت تتركيني لتلحقي بذلك الرجل الغني .

ـ لا ليس الامر كذلك .

ـ انت تكذبين وتكذبين ولا تستطيعين الا ان تكذبي !

« شاهدت امام الباب الخارجي للمسبح رجلا طويلا محروق الجسم كورقة تبغ . ووراءه ظهرت امرأة شقراء عرت ثلاثة ارباع جسدها . صعدا الى سيارتهما . ثم اختفت السيارة عن ناظري وهي تطلق دخانا واتربا ابتعد في ثوان . كانت النقطة الحمراء والشمس تبهتها والوهج يظهرها ويخفيها . كانت الاشعة الرطبة الدبقة تلقي برذاذها الى وجهي وجسدي تخلطه بالعرق ونجففه . كنت امام البحر . الصفحة الزرقاء تمتد ، تشير ، الى افق مهتز بعيد .

(اتريد ان تدعها

لماذا

هكذا انا اقول انها لا تريد ان تراك .

لتقل هي بنفسها .

الا تصدق

لا اصدق

ولكنها قالت ذلك بنفسها وانا اخبرك

وما شانك انت

حسنا هذا ما اود اخبارك به .

عندما كان القمر في خط الافق كانت السيكارة في يده قريبة من ذراعي) .

كان البحر يتلألأ وينعكس عليه وهج الشمس ، فيرجع الى عيني خيوط النور كأبر فضية انغرزت في مآقي . الموج لا يزال يرسل بدائرته الى الشاطيء الصخري متتابعا هذرا عنيفا والشمس قد انحدرت الى ربع كوة السماء وهاجة ساطعة . كنت قد ابتعدت وخطوت الى الطريق المرتفع المتعرج . لاح البحر خيطا نحيلا من وراء جدران المسبح. كانت السيارات تصعد الطريق وازيزها يرتفع لاهثا . عندما بلغت المنعطف احسست بشعور القيء . مضغت ريقي وبلعته ».

رمقتني طويلا وكنت اعلم ما سوف يكون في البيت بين اشجار الحديقة ، تحت شجرة الليمون عندما يقف القمر عند خط الافق . ما كنت منها انتظر على الاقل ان تبكي ، و « منى » الباكية هي واحدة لم اكن بها على تجربة .

كانت تظن انها ستخرج بكلمة وستنتهي خمس سنوات بكلمة . وتحت لساني كنت اتذوق مرارة الانتصار . ساترك انا وليس هي من اشاء وليس هي ابدا . لم يكن ما كنت به اعتقد . لكني اعتقده الان وهي عني تبتعد .

ـ اظن هناك طريقة . ما رأيك ساعطيك شيئا من المال . ونستطيع ان نجتمع ساعة تشاء . اظن انك ستقبل .

لم اكن اعرف ما اجيب . الا ان صوتي بدا مرتفعا وانا اقول.

ـ لا اريد . ابقي نقودك لنفسك لا احتاج اليها .. ولا احتاج اليك .

« رأيت واحدا من باعة « الشيكلس » فنقدته خمسة قروش ومضيت اصعد الطريق . شعرت بالعرق يخضب قميصي على الصدر وتحت الابطين والهواء المتوهج الرطب يصب رذاذه . كنت قد تعبت فوددت الوقوف واخذت ظل بناية ملونة كبيرة . وقفت بضع دقائق ثم تابعت طريقي وانحدرت مرة ثانية الى البحر . سمعت الموج يهدر بسكون (ماذا أريد كنت من سماء البحر من خط الافق من غيمة السماء) عندما اقتربت من المنعطف ، كان بعض الباعة الصغار في ملابس كاكية وملابس سوداء ممزقة يقفون احذيتهم مهترئة ومقطعة وعيونهم مدورة ومتقعرة ووجوههم سمراء أحرقتها الشمس . تركت المنعطف وتوجهت الى الشارع الذي تمر فيه الحافلة .

عادت الظلال تدور من امامي . مر اطفال صغار تحت مرفقي . كان طفل يحمل بيده الكتب ويلوح بالاخرى في الفراغ المتوهج. كان ينادي . تحسست علبة السكاير » .

نظرت الى السماء . كان القمر قد وقف على خط الافق تماما تنطبع عليه صورة « منى » بوجهها الطفولي القديم وشعرها القصير. شعرت بشيء يتحطم بعنف والصورة تتشقق وتتمزق وتنحدر الى هاوية البحر .

ابتعدت عنها والاغلال أسمع صليلها وهي تتفكك من يدي . وكنت امشي بثبات في الشارع الطويل .

بيروت